



الاصحاح

■ من «باب السلام» عبّر إلى جوّاري، تعلّقت به عيناى وأنا أتلو دعاء دخول المسجد، شيخ مسن بملايس الإحرام، صدره ووجهه منحنيان صوب أرضية المسجد الحرام، كل عروق جسمه النحيل ظاهرة، وقطع لحمية من أعلى ذراعية تهتز مثرهلة، كتل بشرية مكسوة باللون الأبيض تتحرك في بطء حيناً وفي سرعة حيناً آخر، تحدث السرعة إذا تحركت الصفوف الأولى فيجدها التابعون لهم فرصة للإسراع.. فالكعبة قد بدت أمامهم، كل منهم يختلس النظر إليها من تحت كتف الآخر أو من فوقه! ها هي ذي تبدو بعد خطوات من مدخل باب السلام.. تبدو باسقة مهيبة، تزدان بحجابها الأسود.. الكل يرنو إليها وكأنهم يخشون أن يعوقهم عائق عن الوصول إليها، وأنظر فأرى غيري ينظر إلى الطائفين في فرحة وبهجة، وسؤال يتقاطر في صدورنا، وتكاد تتناقله عيوننا: هل سنصل إلى هذا الموضع؟ هل سنطوف؟ أفسنصير قريبين من الحسناء الباسقة وهي تحتضن الحجر المبارك.. تضمه بكلا جناحيها، فالخلق كثير وكلهم يريدوها.

خواطر كثيرة تملأ الرأس ثم تندرج إلى القلب، إنها حجتى الأولى، وهتاف عذب في صدري يتمايل، أحاول إيقافه فأعجز، أكاد أسمع صوت خواطري: هذا أول بيت وضع للناس على الأرض ليعبدوا فيه رب السماء والأرض «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين»

بالرغم من شدة احتكاك الأكتاف والأيدي نظراً لكثرة الحجاج وتزاحمهم فنحن جميعاً باسمون، هذه البسمة في الأصل ضحكة لكن كل منا يكتمها قليلاً فتخرج ابتسامة صغيرة على فم شخص، وواسعة على فم شخص آخر.

أنظر إلى الشيخ وأنا أحاول أن أقرب منه، فلعله يحتاج إلى شيء، ابتسامة حلوة متهللة تعلو وجهه الأبيض، وتطفو فوق لحيته المشيبة، أراها وهو يحاول أن يرفع وجهه المحنى ليرى الكعبة.

لمست كتفه بيدي مرحباً: أهذه حجتك الأولى يا عم؟ تهدج صوته: الخامسة بحمد الله، من ذاق عرف، لذة لا توصف لا حرماً الله، من عرفها مرة يطلبها كثيراً.. تقبل الله منا جميعاً لا حرماً.. رضي عنا وغفر لنا.

قلت: آمين، ورحمت أنظر حولي، رأيت شعوباً مختلفة.. من بلاد قريبة وأخرى بعيدة، تُعجز اللغة، لكن العيون والابتسامات وعبارات: الله أكبر... باسم الله... لا إله إلا الله، تربط بين الجميع، جميع الوجوه مستبشرة.. ضاحكة، لا يخيفها الزحام الكثيف، لا أحد مقطب أو عابس أو صامت، إن سكت لسان شخص تحدثت عيونه وأسارير وجهه، هندي يخاطبني بابتسامته.. وتركتاني يبتسم لي، يبتسمان للآلوف، لكنني أفهم ابتسامتهما وكأنها موجهة لي وحدي، خاصة بي، ولم لا؟ ما أدراني.. هل يفهمها أحد مثل فهمي؟ هل يشعر بها مثل شعوري، أقرؤها على أنها: «مرحباً... يتقبل الله منا ومنك» أقرؤها بوضوح فتظهر لي كلماتها: ها نحن أولاء في البيت الحرام.. ها هي ذي الكعبة، انظر إنها هناك، قريبة منا.. قرييون منها، ولعلنا نستطيع تقبيل الحجر المبارك، الزحام كثيف، لكن لننتقم ونحاول، غيرنا وصل إليه، ونحن مثل غيرنا، تجيبهم ابتسامتي موافقة مشجعة، وتتعانق البسمات.

يد معروفة تحط على ذراعي.. يد الشيخ، يستحسني برأسه المشتعل شيباً على الإسراع، نظرت إليه فرأيت وجهها قمرياً، لم تقهر التجاعيد وضاءته، هل سوف يسير كل هذه المسافة إلى الكعبة؟

هل سيطوف بين هذه الحشود التي تطوف؟ لعل أحداً من أقاربه أو أبنائه قد مضى ليستأجر له الحامل الخشبي الذي يطوف بها محمولين كبار السن، لكن الآن هل سيمضي أو سيجلس قليلاً؟ أعدت عيني إليه فرأيت يده بساقيه النحيلتين على الأرض، ويداه تكادان تقتربان من موضع قدميه، وعلى شفتيه ابتهالات وذكر ودعاء.

ولأننا دخلنا من باب السلام فقد رأينا أول ما رأينا الساعين بين الصفا والمروة، يمشون ويهرولون ملبين ومهللين، رأيناهم أسفل منا ونحن على جسر حديدي، صغير يأخذنا من الباب إلى ما بعد المسعى، تهليلهم يصدح في أرجاء المكان كله، قلت في نفسي: سوف تسعى بعد الانتهاء من الطواف، نظرت إلى الشيخ وأعدت النظر إلى كبر المسافة بين الصفا والمروة، خاطبته: توكل على ذراعي يا حاج.

أجاب: الله يعيننا جميعاً ويتقبلنا برحمته. كنت أقول لنفسي: كل هذا الطريق.. أعني طريق المسعى.. مضت عليه السيدة هاجر سعيًا وهرولة! انطلق إبراهيم عليه السلام نحو

الجنوب، بأمر الله يتحرك أنبيأؤه ورسله.. وبوحي منه سبحانه ينطقون، تتبعه هاجر وبين ذراعيها وليدها (إسماعيل) وانتهى بهم المسير إلى مكة، وهي وقتئذ مقفرة خلاء، لا يلم بها سوى نفر من الرعاة الرُحُل، وقوم من العماليق كانوا يعيشون خارجها، وينتقلون من حين إلى حين التماساً لماء أو انتجاعاً لمرعى.

البيت عتيق معن في القدم.. لا أحد يعرف على وجه القطع متى كانت بداية إنشائه على الأرض، المهم أن أطلالاً منه بقيت، وعند ربوة حمراء قريبة من هذه الأطلال ودع إبراهيم عليه السلام هاجر وابنه الرضيع تنفيذاً لأمر ربه.

سألته في لهفة: الله أمرك بهذا؟ أجاب دون أن يلتفت: نعم، فقالت في رضا وتسليم: إذن فالله لا يضيعنا.

ومضى نبي الله في طريق العودة يتوسل إلى ربه ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرو﴾.

كان الأب النبي الحليم، قد ترك لزوجته وابنه جراب تمر وسقاء فيه ماء، سرعان ما نفذ الزاد القليل، أشفت الأم على رضيعها.. كلما مرت لحظة ازداد خفقان قلبها وامتناً خوفاً.. ألهمها الله أن تتحرك نحو جبل الصفا لتسعى وتدعو بينه وبين جبل المروة، هرولت وسعت، وسألت الله في إلحاح وتضرع أن يرزقها وطفلها، وأن يؤنس وحدتها، ويبدد غربتها.

سعت سبعة أشواط ثم عادت إلى وحيدها راجية منتظرة فرج الله.. الرضيع يئن وقدماها لا تقويان على حملها وعيناها حائرتان بين النظر إليه، وإبعاد وجهها عنه.. ثم نظرت فرأت طائراً يحوم على المكان ثم يحط على بقعة منه، لبث ينقر فيها بمنقاره حتى انبثق ماء.. وأقبلت ترتوي وتسقي طفلها، زاد الماء وقاض، فراحت تلمه إلى أسفل.. إلى ينبوعه الثري هاتفة: «رُمِّي.. رُمِّي»

عدت أنظر إلى الكعبة.. المكان هو هو.. لعل هاجر ووحيدها كانا هنا أو هنا، أمام هذا الركن أو ذاك أن يصدر أمر الله إلى إبراهيم وإسماعيل أن يرفعا القواعد. كان البيت من قبل وإنما رفعا قواعد..

سعت هاجر بين الصفا والمروة سبعة أشواط، وأمرونا إلى الأبد بأن نفعل فعلها في كل عمرة أو حج وأن نتلو ﴿إن الصفا

والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما.. ﴿

الكعبة مائلة أمامنا، ندفع نحوها عيوننا وتدفع قلوبنا ونحرك أرجلنا إليها وسط أمواج البشر، أدركت رأسي ناحية الشيخ فرأيت أثر إعياء على وجهه، قلت له: يا حاج، هل تحب أن نجلس قليلاً قبل الطواف؟

أجابني باسم يحوط الشيب القمري ابتسامته: ليس الآن، بعد الطواف سوف نصلي ركعتين في حجر إسماعيل أو أمام مقام إبراهيم عليهما السلام ثم نشرب من ماء زمزم.. تذكر يا بني أنه شفاء، وعندئذ لا بأس من أن نجلس قليلاً.

همست لنفسي، وخواطري لا تتركني: كانت هاجر تدعو الله في حماسة ورجاء.. في ثقة ويقين، فتفجر الماء الحلو، وتدفع الناس من كل مكان، وعاماً بعد عام بلا توقف، حتى أتينا نحن الآن.. وهو موكب مستمر، كل هؤلاء الحجيج من كل الدنيا أتوا منفذين أمر الله: «ولله على الناس حج البيت» ومنذ زمن بعيد نفذ إبراهيم عليه السلام أوامر ربه مرات عدة، عندما أمره ربه بتبليغ دعوة الحق وهجر عبادة الأصنام ولقي في سبيل دعوته عنت القائه في النار، فأمرها ربه بأن تكون عليه برداً وسلاماً، عندما أمره بأن يترك زوجته وابنه في مكان لا زرع فيه ولا ماء، عندما أمره بأن يذبح ابنه الحبيب الذي رزقه على الكبر، عندما أمره ربه بأن يرفع قواعد البيت ويظهره للطائفين والعاكفين والركع السجود مع ابنه إسماعيل.

أخرجني من تأملي صوت الشيخ ضعيفاً متهدجاً رقيقاً حاراً: الله أكبر، الله أكبر، التفت فإذا نحن على مقربة منها (الكعبة)، تشبثت عيناها بها، جميلة جليلة، أعلاها مغدق وأسفلها مثمر.. أصوات تسابيح تنساب من قممها إلى قلبي، تجمع الطائفين حولها يشبه تجمع الأولاد والبنات حول أمهم.

التفت إلى الشيخ، وتأكدت أنه سيطوف على قدميه، ونظرت إلى الكتل والجموع.. رقة الوجوه وأطياف الابتسامات تطمئنني أن أحداً لن يوقعه أرضاً، لكن شيخوخته ومشيه برجليه وظهره محني تماماً يقلقني، رفع رأسه قليلاً بقدر استطاعته: فلنبداً من الخط... الخط الممتد أمام الحجر.

رجعنا إلى الخط المرسوم على الأرض بلونه المميز المختلف عن كل الرخام الأبيض، والممتد بدءاً من الحجر المبارك.. رأيت يرفعه يديه مشيراً إلى الحجر: باسم الله الله أكبر، لحم ذراعيه يزداد اهتزازاً، أنفاسه مع كل طواف تزداد اضطراباً، لكن وجهه يزداد ضياءً!

كنت حريصاً على أن أكون قريباً منه.. كلما فرق بيننا الحجيج كنت أرسل عيني إليه ثم أقترب منه، أدرك حرصي فرفع رأسه

وأرسل من طاقم أسنانه ابتسامة صنع لها وجهه المشرق إطاراً جذاباً.

قريب نهاية الشوط الأول قال لي: فلنقبل الحجر.

كان بيننا وبينه مئات متلاحمة مترصة من الطائفين. قلت: هذا صعب للغاية. لم يجبني وواصل الخطو، ثم قال: ادع الله بما في قلبك، تذكر أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سمعته يرفع صوته بين الركن اليماني والحجر المبارك: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ رددت دعاءه وأنا أنظر إليه وهو ينحاز إلى ناحية الحجر. فطنت إلى بغيته وهدفه. قلت له في إلحاح: صعب للغاية، ألا ترى الجموع المتدافعة نحوه. لم يجبني.

مضينا معاً، وهو يكاد يسبقني، وتوقف أمام «الملتمزم» يدعو ففاضت عبراته على لحيته البيضاء قطرات كالندى فوق الغل عند إشراقة الصباح.

واستمر الأمر على هذه الصورة.. ينحاز إلى الحجر ثم يتراجع ويكمل الشوط الذي هو فيه، في الشوط السادس سمعته يهتف: توكل على الله، ثم رأيت رجلاً غير الذي رأيته.. رأيت جسمه المحني يتجمع ويشد، لا أستطيع أن أصف في كلمات ما حدث، أذكر فحسب أنني رأيت أجساماً كبيرة وعضلات ضخمة لدى بعض الشعوب خاصة، والمسؤولون عن النظام يحاولون توسعة مكان لكبار السن لكننا جميعاً نشكل في تلاحم متنافس قطعة حديدية صلبة ضخمة، والأجسام تتدافع بلا إرادة.. يريد شخص أن يتجه إلى الأمام لكنك تراه مندفعاً إلى الخلف فتتحاشى سقوطه عليك.. فتتراجع، لكن لم يحدث أن وقع شخص على الأرض.

ازداد اشفاقي وخوفي على الشيخ، لكنه وكزني بأصبعه هاتفاً: توكل على الله.

وفي لحظة أو لحظتين غداً بينه وبين الحجر ذراع واحد، لكن كتلة بشرية تشكل جداراً صلباً تحتل هذه المسافة وجدت في نفسي حياءً أن أضعف، فشذت خطاي نحو الشيخ إذ كان قد تجاوزني، غدوت إلى جواره... كلما اقترب من الحجر ازداد هتافه: (باسم الله، الله أكبر) قوة، اخترق الجدار البشري ثم توقف، فحسبته سوف يرجع، لكنني رأيته يتقدم، بظهره المحني وبقطع اللحم المتراقصة فوق عظامه شب بقدميه ومد ذراعيه ناحية جدار الكعبة فوق موضع الحجر المبارك.... ورأيت يميل رأسه إليه ويقبله.